ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

نماذج من حرف و صنائع البناء والعمارة بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط عصر الدولتين الحمادية والزيانية

الأستاذ: جديد عبد الرحيم
أستاذ مساعد أ
جامعة عبد الحميد مهري – قسنطينة 02

مقدمة

جسدت الرغبة الإنسانية الطريق الواضح لرسم تطلعاته ومسعاه وهذا على مر العصور ،حيث فكر الحرفي المسلم فيما حوله تحت مسمى التفكير والسعي والإخضاع، ليجسد مطلب الرزق والعمل من أجل تلبية حاجيات العيش الكريم على الأقل ،فانسحب على هذا التفكير العديد من النتائج منها على سبيل المثال لا الحصر ظهور حرف و صنائع مختلفة، والتي كانت من الدواعي اللازمة والأفعال الجازمة ، وهذا كان برغبة الحرفي والصانع المسلم على مر العصور الإسلامية عامة ،فنتج عن ذلك تنوع لا حصر له بفضل الحاجة والضرورة وكثرة المطالب من جهة ومن جهة أخرى المتغيرات فرضتها العديد من المعطيات التي منها العمارة الإسلامية بأنواعها من جهة أخرى.

لقد جسدت العمارة أحد أهم أوجه مطالب انتشار نوع من الحرف والصنائع ، التي كانت الحاجة أهم أسبابها فأدى هذا إلى ظهور العديد من الحرف والصنائع التي كانت تمد بطريقة مباشرة أو غير مباشر العمارة بأنواعها بكل متطلباتها ، من مواد للبناء و الزخرفة المعمارية بأنواعها المختلفة ، والتي يمكن أن نسميها حرف وصنائع العمارة ،والتي تسيير جنب إلى جنب على مر العصور الإسلامية متلازمة مع بعضها البعض تعكس بكل وضوح صورة التطور بوجهيه الإيجابي والسلبي ، باعتبار كليهما مرآة عاكسة للأخر ،فالعمارة بجمالها وإتقانها وزخرفتها وتنوعها تعكس مباشرة تطور وازدهار وخبرة ومهارة حرف وصنائع العمارة ،والعكس صحيح فكليهما يكمل الآخر ليسجدا لنا أجما صور التكامل المادي الذي صممه حرفي وجسده بناء وفنان مسلم.

لقد اخترنا الحيز الجغرافي المحصور بالمغرب الأوسط و في إطار زمني متمثل في القرن الخامس والسادس الهجري الحادي عشر و الثاني عشر ميلادي من أجل دراسة نماذج من حرف وصنائع العمارة الإسلامية بالمغرب الأوسط من أجل الوقوف على واقعها ،وهل عرفت تطورا بحكم الفترة الزمنية التي عرفت ظهور أحد أهم دويلات المغرب الأوسط وهي الدولة الحمادية والزيانية ؟ ،وقد ارتأينا أن نعرض مفهوم الصنعة والحرفة ومدلول كل منهما تسهيلا لبسط الموضوع .

أولا : الصَنَعة والحِرفَةُ المفهوم والمدلول :

عرفت الحرفة والصنعة بعدت مفاهيم لدرجة أصبحت محل خلاف بين الباحثين حول المفهوم الصحيح والفرق بين كليهما، فكان لابد من التعريج على أهم الآراء التي تناولت الصنعة والحرفة كمفهوم أو كمدلول حتى تتضح الصورة في محاولة منا لتقريب وجهات النظر للطرح الذي يلي هذا التقديم ،فيا ترى ما المقصود بالصنعة و الحرفة و ما الفرق بينهما ؟.

1 – تعريف الصنعة:

أ – لغة :

حرفة الصَانِع وعمله الصِنَاعَةُ ،والتَّصَنُعُ تكلف حسن السَمتِ (1)ويقال رجل صَنِيعُ اليديين أي صَانِعُ حاذق ويقال امرأة صَنَّاع أي حاذقة ماهرة بعمل اليديين (2) والصٌنع بالضم وسكون النون هو أيجاد شيء مسبوق بالعدم (3) لقوله تعالى " وَعَلَمنَاهٌ صَنعَةَ لَبوُسٍ لَكُم لِتَحصِنَكُم من بأَسِكُم فَهل أَنتُم شَاكِرُون "(4) ويقال صَنَعَهُ يَصنَعُهُ صَنعُا فهو مَصنُوع لقوله تعالى " صُنُع الله الذِي أَتَقَنَ كُلَ شَيءٍ إنه خبير بما تفعلون " (5) ويقال الصَنَاعَةُ بفتح الصاد يقصد بها المحسوسات، والصِنَاعَةُ بالكسر يقصد بها المعاني (6)
.

ب – اصطلاحا:

يقال هي كل عمل يمارسه شخص ويمهر فيه حتى يصبح حِرفَةُ (7) والصَانِعُ هو من يعمل بيديه كمن يتعلم عندهم صناعتهم وكان يقصد بها الخادم (8) و الصَّنعَةُ حِرفَةُ الرجل وعمله (9) والصٌنَاع هم الذين يعملون بأيديهم (10) والصِنَاعة ملكة نفسانية يصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية وقيل هي العلم المتعلق بكيفية العمل (11) وقيل عن الصِنَاعَةٌ أنها أخص من الحرفة لأنها تحتاج في حصولها الى المزاولة (12) وقد

عبر إخوان الصفا على إتقان العمل أنه التشبه بالصانع الحكيم الذي هو الباري جَلَّ ثناؤه (13)ومن الباحثين من يرجع سبب قلة التأليف في الصناعة إلى الحفاظ على سر الصنعة فلا يودع عند أحد ولا يباح به إلا في ظروف و أحوال خاصة (14) ومن خلال ما سبق يظهر لنا التقارب بين الصنعة والحرفة حتى من الباحثين من يقول أن كلا اللفظين (الحِرفَةُ والصَنعَةُ) يدلان على معنى واحد(15) .

2– أنواع الصنائع والحرف:

من الباحثين من يقسمها الى ثلاثة أنواع : أ - صنائع أصول لا قوام للعالم دونها: وهي الزراعة للمطعم ،والحياكة للملبس والبناء للمسكن ،والسياسة للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة .ب – صنائع مهيئة لصنائع أساسية : كالحدادة التي تخدم الزراعة والحلاجة و الغزل التي تخدم الحياكة .ج – صنائع متممة للأصول ومزينة لها : مثل الطحن والخبز للزراعة والقصارة و الخياطة للحياكة .وهناك صنائع أخرى مقسمة بحسب احتياج الفكر و الحركة وهي ثلاثة أقسام :د – صنائع علمية :تحتاج الى الفكر كالهندسة والنحو .ر- صنائع عملية :والتي تحتاج الى الحركة كالحدادة والفلاحة والحياكة .ز- صنائع مركبة : تحتاج الى فكر وحركة كالطب والكتابة (16) ومنهم من يقسمها على الى نوعين روحاني وجسماني ؛فالروحاني هو الموضوع في الصناعة العلمية ،والجسماني هو الموضوع في الصناعة العملية وهو نوعان :بسيطة هي النار والهواء والماء والأرض والمركبة ثلاثة أنواع وهي الأجسام المعدنية والأجسام النباتية والأجسام الحيوانية ،فمن الصنائع ما يكون فيها الماء فقط ،كصناعة الملاحيين والسقاءين والروائيين و السباحين ومن شكلهم ،ومنها ما يكون فيها التراب فقط ،كصناعة حفر الآبار والأنهار والقبور والمعادن وكل من ينقل التراب ويقلع الحجارة ،ومنها ما يكون فيها النار فقط ، كصناعة النفاطين والوقادين و المشعلين ومنها ما موضوعها الهواء فقط كصناعة الزمارين والبواقين و الفخارين ،ومنها ما يشترك فيها الماء والتراب كصناعة الفخارين والغضارين وضرابي اللبن ،وكل من يبل التراب ،ومنها ما صناعتها الأجسام المعدنية ؛كصناعة الحدادين والصفارين والرصاصين والزجاجين والسواغين وشكلهم ، ومنها ما يكون ذات أصول نباتية من الأشجار والقصبان والأوراق كصناعة النجارين والخواصين و البوارين والحصورين والقفاصين ومن شكلهم ومنها ما موضوعها ثمر الأشجار وحب النبات كصناعة الدقاقين و النواءين والعصارين والبرازين ومنها ما موضوعها لحاء النبات وحسب كصناعة الكتانين و الكغادين والوراقين ،ومنها ما موضوعها الحيوان كصناعة

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

الصيادين ورعاة البقر والغنم ساسة الدواب ،ومنها ما موضوعها أجسام وأوبار الحيوان من اللحم والعظم والجلد والشعر والصوف كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدباغين والأساكفة و الخرازين ومن الصنائع ما موضوعها مقادير الأجسام كصناعة الوزانين والكيالين والذراعين ومن الصنائع ما موضوعها أجسام الناس كالأطباء والمزينين والحلاقين (17) و منهم من يجعل منها الضرورية كالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة ،والشريفة منها كالتوليد والكتابة و الوراقة والغناء والطب (18).

3 - أسماء الصُنَاع والحِرَفِيِن:

وهم العلافون ،الطباخون ،الفرانين ،الخبازون ، الشواؤون ،النقا نقيون ،البوار ديون ،الجزارون ،الرواسيون ،الطحانين الشرائحيون ،الهراسين ،وقلاؤو السمك ، وقلاؤو الزلابية و البزازون ، ،والحاكة ،الخياطون الرفاؤون ،القصارين ،صناع القلانس، الحراريون، والصباغون، القطانين ،الكتانين ،الصرافون ،الصاغة ، الصفارين، والحدادين ،والإسكافية ،والبياطرة سماسرة العبيد والجواري ،والدواب والدور، السدارون ،الفصادون ،الحجامون ،الأطباء ،الكحالين ،الجراحون ،المؤدبون للصبيان، المؤذنون ،الوعاظ ،المترجمون ،كتاب الرسائل ، القضاة ،أصحاب السفن، و الفخاريون ،والفراؤون ،والحصريون ،التبانون ،والخشابون ،القشاشون ، والنجارون ، النشارين ،البناؤون ،الدهانون ،المبيضون ،الجيارون ،الرزازون ، المرواحيون ،الزفاتون ،وغيرهم . (19)

4 – حاجة الصانع الى الأدوات :

تحتاج كل صنائع البشر الى أداة أو أدوات أو آلة أو آلات ،يستعملها في صنعته والفرق بين الألة والأداة هو أن الأداة هي اليد والرجل والرأس والعين وبالجملة هي أعضاء الجسد ،وأن الأداة هي الخارجة عن ذات الصانع كمنشار النجار ومطرقة الحداد ،وإبرة الخياط وقلم الكاتب ،وأشكال أخرى يستعملها الصانع في صناعته ،كما يحتاج الصانع الى أدوات مختلفة الأشكال والهيئات ،ولكي تعمل هذه الأدوات لابد من تحريك بعض من أجزاء الجسد فمن الصانع ما يتحرك فيها ستة أعضاء ومنها ما يتحرك فيها سبعة أعضاء، وعليه يمكن القول أن لكل صنعة سبعة حركات واحدة دورية وستة مستقيمة ،وهي حكمة إلاهية لما كانت حركات الأجرام العلوية الفلكية سبعة أنواع واحدة دورية بالقصد الأول وستة عرضية(20) .

ثانيا – نماذج من حرف وصنائع البناء والعمارة

تعد صنائع البناء من أقدم الصنائع، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل والقصور، ذلك أنا الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحاوله، لا بد له من أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد (21) و لربما كانت الحاجة إلى صنائع البناء هي من رسمت الملامح الأولى إلى المشتغلين في صناعة البناء ،فتعددت أسماؤهم على حسب تخصصهم في صنعة البناء في المغرب الأوسط ومن هؤلاء نذكر .أ – **صناعة البناء:**

ومفردها بناء وهو من يقوم بعملية البناء بمواد مختلفة لغرض بناء(22) ويقال هو مدبر البنيان وصانعه (23) وصنعة البناء من مراتب الصنائع الضرورية (24) وكانت هذه الصنعة من الصنائع التي يسهر على مراقبتها المحتسب حين تأتيه شكوى من أحد أصحاب المنازل كان يبني له منزله (25) وصناعة البناء من أهم الصناعات التي لا يمكن الاستغناء عنها ،وهي تحتاج إلى يد عاملة ماهرة ومتدربة ومهندسين ووسائل ومواد للإنجاز (26) كما تختلف أساليب البناء و أحواله بحسب المتعارف عليه كما يصطلحوه على قدر الغني والفقير ،فمنهم من يتخذ القصور الكثيرة الدور ويبني جدرانها بالحجارة والآجر والكلس ويبالغ في تنميقها وتزينها بالأصباغ والنقوش وضروب من الصناعة المختلفة ،ومنهم من يكتفي ببناء البيوت بنفسه وولده لا يتجاوز إلى ما سواه لقلة ماله (27)

ومن البقاع التي شهدت نهضة عمرانية كبيرة في مطلع القرن الخامس للهجرة المغرب الأوسط الذي شهد ميلاد كيان دولة جديدة وهي الدولة الحمادية ،والتي تعد مآثرها العمرانية شاهد مادي حقيقي يعكس مدى براعة وخبرة بنائي ذلك العصر بالضبط ،فلقد اعتمد بناؤو الدولة الحمادية في تلك الفترة على نسبة كبيرة من الموارد الطبيعية للمنطقة التي تساعد في البناء كمواد مصنعة أو نصف مصنعة .

إذ تأكد مواد البناء المستعملة والباقية إلى يومنا هذا تصارع ويلات الزمن والبشر، فلقد استعمل البناء خلال العصر الحمادي عديد المواد من حجارة و آجر وقرميد ورخام وجص ومواد أخرى عديدة ،ومما لاشك فيه أن البناء خلال العصر الحمادي كان على خبرة كبيرة في هذا الميدان نقلها بصفة مباشرة وجسدها على نماذج العمارة الحمادية الباقية إلى اليوم بقلعة بني حماد ، من المسجد الجامع وقصر البحيرة وقصر المنار

ومعالم أخرى ،كما استعمل عدة طرق للبناء منها العادية والممزوجة بين الحجارة والآجر وطرق أخرى مختلفة تظهر تارة وظيفية بحتة وتارة أخرى وظيفية جمالية .

ولم تعرف ظاهرة البناء تطورا سلبيا بل على العكس كلها إيجابية وهذا واضح من خلال وجه المقارنة الثاني الذي يرجع للعصر الزياني بمطلع القرن السادس للهجرة ، وفي هذا النّطاق الأخير تختلف أحوال البناء وأساليبه، بحسب ما يتعارف عليه أهله ويصطلحوه على قدر الغنى والفقر، فمنهم من يتّخذ القصور الكثيرة الدّور، يبني جدرانها بالحجارة أو الآجر ويلحم فيما بينها بالكلس، ويبالغ في تزيينها بالأصباغ والنّقوش وضروب من الصّناعة مختلفة ومنهم من يكتفي ببناء البيوت لنفسه وولده لا يتجاوزهُ إلى ما سواه لقلّة ماله (28) أما بخصوص مواد البناء المستعملة فلم يخرج البناء الزياني على المعتاد على ما هو معروف في عصور سابقة ،حمادية ومرابطية أو موحدية ،حيث تظهر جليا من خلال مخلفاتهم المعمارية أنهم استعملوا الحجارة و الآجر والقرميد و الرخام الجص ومواد أخرى عديدة لكن بطبيعة الحال تختلف من حيث طريقة التجسيد والتنميق ،وهذا بدون شك راجع إلى التأثيرات الوافدة إلى تلسمان خلال العهد الزياني و الآتية من الأندلس والمشرق ، حيث ظهرت أكثر تطورا مما عرفت عليه خلال العصر الحمادي .

ومن اللافت خلال العصر الزياني هو استعانة ملوك بنوا زيان كأبوا حمو الأول وابنه تشفين في مجال العمارة بالحرفيين والمهندسين والمهرة الأندلسيين ،فطلبوا ذلك من أبي الوليد صاحب الأندلس ،فبعث إليهم بالصناع والمهرة والحذاق من الأندلس من أجل أن يستجِيدٌوا له القصور والمنازل والمساجد (29) كما لا ننسى الحرفيين والصناع من الأسرى ،فلقد استعان بهم سلاطين بنوزيان في مجال حرف وصنائع العمارة ،ولربما الدليل رسالة أبي تشفين إلى ملك أراغون تأكد وجود أسرى فنانين صناع وحرفيين مسيحيين بتلمسان (30) . فهذا يأكد فرضية تأثر العمارة الزيانية بالعمارة الأندلسية الوافدة مع حرفيها ومهندسيها وبنائيها حاملين معهم خبرتهم من مدنهم القادمين منها ،فلا مجال لشك أن هذا يعد من أوجه التأثير الحقيقي الذي تظهر معانيه بصورة جلية من خلال العمارة و الزخارف المطبقة عليها كالزخارف الجصية ،ومواضيع زخرفية نباتية وكتابية وحتى هندسية بديعة .

ب – صناعة الجبس والجص :

الجَبَاس صانع الجبس وبائعه (31)ويقال الجَصَّاصُ نسبة إلى الشخص الذي يشتغل على الجص وهو الجبس (32) ويدعى الشخص الذي يحترفها باسم الجَصَّاص (33) وقد

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

أستعمل الجص منذ العهود الأول في المغرب الإسلامي ولعلى أولها كانت ما عثر عليه من قطع جصية بحفائر العباسية على العهد الأغلبية التي ترجع لحوالي (184هـ)(34) وبالمغرب الأوسط تعد خرائب ومعثورات مدينة سدراته الرستمية من أكبر البصمات التي تركت وأثرت من بعد نظرا لتنوعها الكبير ودقتها تمازجها بين ما هو نباتي وكتابي وهندسي وفي مواضع مختلفة ، والتي توحي بقوة التطور والتأثير الكبير المتعدد الجهات كالمشرقي والوافد من طرز سامراء الجصية والجنوبي الوافد من مدن إفريقية الجنوبية كمدينة لامو المحمولة عن طريق القوافل التجارية الوافدة من هناك(35) وما إن لَبِثَ حتى انتشرت في ربوع المغرب الإسلامي والأندلس وكان النقش على الجص يسمى التَجصِيصِ والعامل عليه يسمى الجَصَّاص والشائع منه نقش التخريم على الجص الطري المبسوط (36)وفي المغرب الإسلامي كانت أفران صانعي الجير والجص تبنى خارج أسوار المدن لما فيها من أذى ولتقريبها من حجات الصنعة كالماء بالقرب من الوديان ،و كانوا يستعملون الحيوانات كالحمير لنقل الكتل الجبسية من المحاجر إلى ورشات العمل.

لقد عرفت هذه الحرفة من أنواع البناء تجسيدا كبيرا وواضحا خلال العصر الحمادي ولا أدل على ذلك من اللقى والمخلفات المعمارية كشاهد مادي حقيقي على روعة وخبرة الجصاص الحمادي ، الذي نوع لنا من صور الزخارف و الصناعات الجصية من تكيسات مختلفة لا حضناها من خلال الميدان ،كالتكيسات الداخلية مثل منارة الجامع و مواضع عديدة من قصر المنار ، و بقايا عناصر زخرفية مختلفة أثارت الجدل حول أصولها و تأثيراتها مثل المقرنصات ،فوجودها على العمارة الحمادية أصدق تعبير على تطور الصناعات الجصية الحمادية وخبرة براعة جصاصيها ،نهيك عن فنون جصية أخرى مختلفة كالشمسيات و الصدفات والأفاريز الحاملة للزخارف المتنوعة النباتية منها والكتابية وحتى الهندسية ،كما هو الحال بواجهة محراب قصر المنار الذي يوجد أجزاء منه اليوم بمتحف سطيف .

كما استعمل الجصاص الحمادي عدة طرق للعمل على مادة الجص كطريقة الزخرفة بالتلوين والنقش وحتى القالب وهي نقطة ايجابية تحسب لصالحه كواقع مهم يرجع إلى العصر الحمادي في مطلع القرن الخامس للهجرة و الذي سيكون له تأثير كبير من بعد في ربوع المغرب الإسلامي .

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

لقد أضحت حرفة الجَصَّاص من أجمل وأجلّ الأساليب الزخرفية في البناء، حيث تعتمد على مادة الجبس التّي كانت تتوفر عليها الكتل الجبلية المحيطة بتلمسان، حيث الصخور الجيرية والكلسية(37) ليجسدها الجصاص الزياني في أحلى صورة فنية فيها الكثير من معاني الدقة والخبرة ولا أصدق صورة مثل العمائر الزيانية التي جسدت فيها كل صور الخبرة في هذا المجال كمحراب جامع أبي الحسن الذي يعتبر أية من آيات الزخرفة الجص خلال العصر الزياني وهذا للدقة الكبيرة والتنوع المنقطع النظير لأنواع الزخرفة من كتابية ونباتية وهندسية .

ومن خلال هذا الطرح البسيط المختصر يمكن القول أن واقع حرفة الجَصاص الزياني عرفت انتشارا كبيرا وتطورا ملحوظا يفوق بصراحة ما عرف على العصر الحمادي كما ونوعا ،وهذا راجع بطبيعة الحال إلى التأثيرات الأندلسية الوافدة من الصناع والحرفيين والبنائيين .

د – صناعة القرميد :

من الناحية اللغوية القرميد طبيخ الأجر (38) أما من الناحية الاصطلاحية هو مزيج من طينة متجانسة ذات حبيبات دقيقة مطبوخة (39)ومن ناحية التحضير فلقرميد يحضر بنفس الطريقة التي تحضر بها المواد الطينية الأخرى كالأجر ومن ناحية مراحل وطرق الاستعمال فهي على طريقتين وفق طريقتين ؛ الأولى تتم بواسطة الدولاب حيث ينتج عن عملية خرط العجينة شكل أسطواني ثم يقطع إلى جزئين ثم تحرق في الأفران ، أما الطريقة الثانية فتتم بواسطة قوالب من الخشب أو الحديد أو الطين المشوي ،(40)ينتج عنها في الأخير وجهين أحدها مقعر و الأخر محدب أحد نهايتها أكبر من الأخرى(41) وقد أستعمل القرميد في عمارة ومدن المغرب الإسلامي والأندلس على نطاق واسع لما فيه من خصائص وميزات خاصة في التسقيف كحماية من الأمطار وتخفيف من وطأة الحر وإضفاء مظهر جمالي بلونه الأخضر القاتم على مباني وسقوف عمائر المغرب الإسلامي الجمالونية خاصة (42) .

كما يعتبر القرميد الذي عثر عليه بحفائر قلعة بني حماد نموذجا لصناعة القرميد في المغرب الإسلامي وهو على نوعين(43) من حيث المقاسات ،فلقد قدرت مقاسات النوع الكبير ب (38 سم طول x 17.8 سم قطر القاعدة الكبيرة x 11سم قطر القاعدة الصغيرة ،0.14سم سمك) أما النوع الصغير فتقدر مقاساته ب (35سم طولx 16 سم سمك قطر القاعدة الكبيرة x 10 سم قطر القاعدة الصغيرة x 0.15سم سمك)

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

(44)ومما لاشك فيه أن القرميد الحمادي استعمل على نطاق واسع في العمارة خاصة في مجال التسقيف ،والظاهر أنها صناعة محلية والدليل العثور على الكثير من الشقوف وفضلات الصناعة التي توحي بمحلية الحرفة، لكن مع الأسف لم تشر المصار إلى مواقع أفران الحرفة وواقع ممتهنيها و أصولهم خلال ذلك العصر ،عدا إمكانية وجود أفرانها بسبب وجود أفران الفخار التي تشترك معها غالبا فينفس الصنعة .

أما خلال العصر الزياني فلقد كانت حرفة القرمادين معلومة الموقع والحال ، حيث أكدت الأعمال الميدانية والأبحاث وما تناقلته المصادر القلمية ،أنه كان يوجد بتلمسان مواضع معروفة لصناعة القرميد كباب القرمادين وباب العقبة ،حيث وجدت بالقرب منهما آثار لأفران وحطام وفضلات صناعة القرميد(45) وكانت حرفة القرميد من الحرف المنتشرة والتي كما هو معروف تمر بعدة مراحل تفنن القرميدي الزياني فيها بكل مراحلها حتى مرحلة التلوين سواء كان اللون الأحمر و الأخضر القاتم ،ليغطي بها بصفة خاصة سطوح المساجد والقصور و عمائر أخرى (46)،ولم تختص سطوح القصور والمساجد منازل السلاطين بالقرميد في تغطيتها بل حتى منازل عامة الناس كانت تغطيها القرميد (47) .

ج - صناعة الآجُر:

الآجُر بضم الجيم وتشديد الراء كلمة فارسية معربة معناها اللَبِن إذا طَبُخَ ليستعمل في البناء وفرده أجرة ، اصطلاحا ؛ هو عبارة عن مادة طينية معالجة للعجن والتحقيق ،لتصبح بعد ذلك مادة صلبة متماسكة ،ومن ميزاته أنه عازل للحرارة وخفيف الوزن ويقلل من ثقل البناء العناصر المعمارية في مواضع مختلفة كالأقواس ،ومن ناحية التصنيع يمر الأجر في صنعته بأربعة مراحل باختصار أولها نقع الطينة وتنقيتها المرحلة الثانية مرحلة العجن بالماء المرحلة الثالثة مرحلة القولبة في قوالب معدة مسبقا من الخشب أو الحديد أو الطين المشوي ، والمرحلة الأخير التجفيف على طريقتين إما بواسطة الشمس تحت الظل أو بواسطة الحرق في الأفران (48) ويعتبر من المواد الأساسية في البناء(49)ولقد استعمل على نطاق واسع في عمارة المغرب الإسلامي بأنواعها وخاصة منها الدينية والمدنية ،و وفق الأحجام وأشكال مخلفة ولا تزال إلى اليوم نماذج من الأجر المغربي ماثلة على العمائر كالموجودة بأطلال الحماديين وفي عمائر المرابطين وفي مساجد الموحدين وفي زوايا الحفصين وفي قصور الزيانيين وفي مدارس المرنيين ،وهي

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

تحكي قمة الإبداع وتفكير البناء والمهندس المغربي لما فيه من سهولة تصنيع وخفة وزن ومظهر جمالي سواء في البناء أو في التبليط .

في مطلع القرن الخامس للهجرة عرفت الصناعات الفخارية عموما وصناعة الآجر خصوصا تطورا كبيرا كما ونوعا ، ولا أفضل دليل على ذلك من العمائر الحمادية وأطلالها الباقية إلى اليوم كشاهد حقيقي على ازدهار هذه الصنعة ،حيث استعمل الآجر على نطاق واسع على العمارة بأنواعها ؛سواء في البناء وفق تقنيات متعددة في الجدران الفاصلة أو الواجهات أو كتبليط للأرضيات وفق طريقة جميلة تشبه حراشف السمكة أو المسمات تقنية السنبلة كما هاو الحال بأرضيات قصر البحيرة ،ومن حيث النوعية فهو على نوعين منه العادي و المطلي ، ومن حيث المقاسات فهو على ثلاثة أنواع منه الصغير و المقدر مقاساته ب ؛(2.5x10x25 سم) أما الحجم المتوسط فيقدر ب (22 4.5 x10x سم) أما الحجم الكبير فمقاساته على التوالي (4x10x27 سم).

بخصوص الأشكال التي الهندسية التي تشكل عليها الآجر الحمادي فنجد منها على سبيل المثال لا الحصر؛ متوازي السطوح يتوجه جذع هرمي ،متوازي السطوح يتوجه شكل قلب ،جذع هرمي قاعدته مستطيلة ،على هيئة نجمة سداسية الرؤوس ،على شكل ثماني الأضلاع ،أنصاف دوائر ...نهيك عم أشكال أخرى عديدة (50) .

من خلال الطرح السابق لصناعة الآجر الحمادي اتضح لنا أنا صناع وحرفي الآجر الحمادي كانوا على خبرة كبيرة في مجال صناعة الآجر بأنواع ومقاسات مختلفة حسب الطلب و الحاجة ،كما كان لطريقة توظيف الآجر في العمارة دليل واضح على خبرة بنائي الآجر وهذا واضح من طريقة رصفه بطرق عديدة امتزجت بينم اهو جمالي وبين ما هو وضيفي .

وبقيت هذه الحرفة متداولة بصورة كبيرة نظرا للحاجة الملحة عليها من قبل العمارة حتى مطلع القرن السادس للهجرة ،حيث زاد الإقبال أكثر على مادة الآجر بأنواعه ،لكن لم تشر المصادر القلمية بصراحة إلى هذه الحرفة ،عدا ما اعتمده الباحثين من الأعمال الميدانية للمأثر العمرانية الزيانية الباقية التي تظهر بها مادة الآجر واضحة للعيان ،ومن بين هذه الصروح نجد منارة الجامع الأعظم بتلمسان والتي يظهر بجزها العلوي مادة الآجر كمادة بناء أساسية ،وهذا لخفتها وسهولة وسرعة تصنيعها ،حيث تظهر هذه المادة تشكل زخرفة نحتية ذات سطحين تثري الواجهات الأربعة للصومعة (51) كما

استعان السلطان يغمراسن بالآجر ذو اللون الأحمر من أجل بناء صومعة جامع أغادير وصومعة الجامع الكبير (52) .

لقد وضف الآجر على نطاق ضيف إن صح التعبير خلال العصر الزياني ،حيث ظهر بقوة على المآذن ،حيث أستعين به في بناء المآذن وهذا لأسباب منطقية منها خفة وزنه وسهولة العمل عليه ومنظره الجميل المائل إلى الأحمر على العصر الزياني.

د – صناعة الفخار:

لقد عرفت مراكز صناعية مهمة بصناعة الفخار والخزف بمطلع ، القرن الخامس هجري على العصر الحمادي بصفة خاصة وقد كان لموقع القلعة دور مهم في أزدها هذه الصنعة و الحرفة ،نظرا لوقوعها على هضبة وتوفر الماء من كل جوانبها ضف إلى ذلك التركيبة الجيولوجية لتربتها والغنية بالطينة الصالحة للصناعة الفخارية ،كل هذه الأشياء و أخرى ساهمت في رقي الصناعات الفخارية الحمادية (53) ولربما من الأدلة ما قدمه لوسيان قولفان على محلية الحرفة و الصنعة هي وجود الأفران خارج أسوار المدينة بالقرب من جبل الرحمة(54).وفي مجال العمارة استعمل الفخار على نطاق واسع خاصة في صناعة البلاطات الخزفية قنوات نقل المياه، أو كخزف معماري متعدد الاستعمالات ،وبنقل العاصمة الحمادية إلى بجاية بقيت محافظة على جذور وأصالة الحرفة ولم تتخلى عنها ،فقلد اشتهرت مدينة بجاية بصناعة الفخار والخزف بأنواعه وكانت بها ورشات و أفران جلب لها الماء عبر السواقي والقنوات العلوية (55) والدليل هو ما عثر عليه من لقى أثرية خاصة بهذه الحرفة (56).

ومما سبق يمكن القول أن صناعة الفخار والخزف الحمادي صناعة محلية ، لكن بطبيعة الحال لم تكن منعزلة من حيث التأثيرات فطريقة الصناعة والزخرفة على الفخار الحمادي كانت معروفة من قبل عدا أن الحماديين واصلوا على نهج سابقيهم في الصناعات الفخارية بكل أنواعها سواء الأدوات المنزلية المختلفة أو المخصصة للعمارة منها كالمربعات الخزفية والآجر والقرميد وقنوات المياه وغيرها .

كما بقيت هذه الحرفة معروفة من بعد الحماديين إلى أبعد حدود المغرب الأوسط بمطلع القرن السادس للهجرة حيث برع حرفية العصر الزياني وتفننوا في هذه الحرفة ،وكانت لمن يمتهنها أما كن معلومة ،بالقرب من أبواب مدينة تلسمان كباب القرمادين ،و اللافت هو إشارة الباحث الفرنسي "جورج مارسي" إلى وجود قطع أو حطام من الخّزف المطلي بالألوان عند هذا الباب وهذا دليل على أنه كانت هناك أفران أخرى مخصصة

لصناعة الفخار بأنواعه (57) حيث يشخص وصف هذه الأفران أنها كانت تتكون من حجرتين سفلية وعلوية ؛ أما الحجرة السفلية فلها باب يستعمل لتزويد موقد الفرن بالوقود من الحطب ،كما يتخلل سطح هذه الغرفة فتحات صغيرة تساعد على مرور الحرارة لحرق الفخار ،أما الحجرة العلوية فتحتوي على باب يستعمله الحرفي ليدخل الغرفة من أجل رصف ومراقبة المصنوعات ،وكانت الفرن مصنوعة من الأجر و والكلس و الطابية (58).

كما كشفت الحفريات على لقى أثري لصناعات فخارية وخزفية ، كقنوات صرف وتوزيع المياه ومواجل فخارية في غاية الدقة من حيث الصنعة خاصة القنوات التي تتميز بلونها الأحمر الأجوري ،وشكلها المستقيم ،وفي العموم هي توحي ببراعة وخبرة حرفي الفخار على العصر الزياني .

من خلال ما سبق نستخلص مجموعة من النتائج نقدمها على شكل عناصر كالتالي:

- بداية من مواد البناء التي عرفت على العصر الحمادي تطورا إيجابيا على الرغم من استباقيتها، حيث جاءت متنوعة توحي بكل بساطة بالخبرة الكبيرة للبناء الحمادي ،كمت وظفت بصورة امتزجت تارة وتارة أخرى إنفردت ،بتنوعها الكبير الذي لخص لنا خبرة البناء الحمادي في مجال الهندسة و التخطيط المسبق والتوظيف المحكم ،و لا أدل من بقائها الى اليوم تصارع ويلات التخريب المختلفة بكل تواضع وشموخ ،وقد حذا بنو زيان حذو جيرانهم الحماديين في مهارة والانتقاء وخبرة توظيف مواد البناء المختلفة ،تجسدت بصورة فنية بديعة ظهرت عليها جليا التأثيرات الفنية الأندلسية الوافدة .

- أما عن حرفة الجصاصين وصناعاتهم المختلفة فهي الأخرى عرفت تطورا كبيرا على العصر الحمادي ،حيث أمدتنا المواقع الأثرية واللقى الأثرية المعروضة بالمتاحف المختلفة بقطع مهمة جدا ،جسدت فيها أنامل الجصاص الحمادي أرقى صور الإتقان والتنوع الكبير في الصناعات الجصية من حفر مختلف ورسم متنوع وتجسيد كبير أي مزجت بين ما هو وظيفي وزخرفي في بطون العقود منارة القلعة أو في واجهة محراب مصلى قصر المنار ،وتواصلت هذه الحرفة على العصر الزياني بصورة متطورة جدا تركت المجال لواجهة محراب مسجد أبي الحسن لكي يحكي في صمت أروع ما أتقنت أنامل الجصاص الزياني بصورة بديعة جدا مزجت بين الزخارف الجصية الكتابية والهندسية والنباتية الدقيقة المنقطعة النظير .

- أما حرفة القرمادين فهي الأخرى عرفت رواجا على العصر الحمادي ، وجعلوا منه صناعة محلية بدليل فضلات الصناعة التي بموقع القلعة إلى اليوم ، حيث قدم حرفيو القرميد على العصر الحمادي عدة أنواع من القرميد تختلف من حيث المقاسات بدليل ما ذكرنا سابقا في المتن وبهذا يعتبر القرميد الحمادي أحد القواعد الأساسي للقرميد المغربي الذي سيعرف تواصلا على العصر الزياني وحظي هو الأخر بعناية من طرف سلاطين العصر الزياني حيث خصصت له مواقع خاصة معلومة ،وسمي باب باسم هذه الحرفة لوقوع مصانعها بقربه ،وهو باب القرمادين .

- إلى جانب الحرف السابقة الذكر خلصنا إلى أن صناعة الأجر من الحرف التي كان لها حضور قوي في مجموع الحرف الحمادية السابقة ولقد أمدتنا العمائر الحمادية اليوم بموقع القلعة بصورة واضحة تعكس تطور إيجابيا لمادة الأجر الذي عرف تنوعا ملحوظا على العصر الحمادي سواء من حيث الشكل أو من حيث المقاسات أو حتى من حيث التوظيف ،حيث تعدت على هذا العصر صناعة الأجر الصورة التقليدية وارتقت إلى مصاف الصورة الفنية ،حيث وظف الأجر الحمادي بصورة توحي بالخبرة والمهارة التي عرف بها الحرفي والبناء الحمادي أو الأصح الأجوري ،فنجدها اليوم في أرضيات القصور الحمادية مرصوفة عموديا بطريقة فنية جميلة تشبه حراشف السمكة أو السنبلة وهي من التقنيات المعروفة في البناء، ولعلى الميزات الإيجابية العديدة لمادة الأجر جعلت من حرفي العصر الزياني يقبلون على هذه المادة بشكل كبير نظرا لخفته وكلفته الاقتصادية وسرعة الإنجاز به ومظهره المنسجم الجميل ،فلقد أمدنا هذا العصر بنماذج عديدة لهده المادة من حيث التوظيف خاصة بالمنائر مثل منار جامع أغادير ومنار الجامع الكبير و الأمثلة أخرى عديدة يظهر فيها مادة الأجر بلونه الأحمر القاني الجميل.

- ومن الحرف الأكثر رواجا نجد حرفة الفخارين التي تعتبر من أهم الحرف التي لقيت عناية خاصة من طرف أمراء وملوك دويلات المغرب الإسلامي نظرا للحاجة الكبيرة ولما تمده من صناعات فخارية مختلفة هذا ما خلصنا له خلال العصر الحمادي حيث عرفت حرفة الفخارين انتشارا كبيرا على العصر الحمادي خاصة لكونها صناعة محلية والدليل بقايا الأفران وفضلات الصناعة ،كما نستنتج أن صناعة الفخار عرفت تنوعا لم يقتصر فقط على الحاجيات اليومية المنزلية من أنية وأقداح و أزيار فقط بل شملت مجال أخر وهو العمارة حيث أمد الحرفي الحمادي العمارة بقنوات فخارية ومربعات

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

خزفية مجسدة بصور زخرفية وفنية مختلفة هندسية وكتابية ونباتية وحتى الصور الأدمية والحيوانية وهي بهذا تحمل تأثيرات فنية مشرقية .

أما خلال العصر الزياني فحرفة الفخارين عرفت هي الأخرى تطورا إيجابيا عكس بصورة واضحة براعة الحرفي الزياني في صناعة الفخار ولقد فصل لنا بعض الباحثين كأمثال جورج مارسي بعض الصناعات الفخارية الزيانية وحتى الأفران التي كانت تعمل بها، والقنوات الفخارية والقطع المختلفة المعثور عليها التي صنعت بصورة دقيقة تعكس براعة الحرفي وتمكنه من صنعته التي نوعها هو الأخر بين مجالات عديدة من الفنون الصناعات المختلفة والعمارة بأنواعها .

الهوامش :

(1) - اسماعيل ابن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ،تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ،ط4،دار العلم للملايين ،بيروت-لبنان -1990م ، ،مج 4 ،ص 1245،1246 .

(2) – مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ،تحقيق مكتب التراث من مؤسسة الرسالة ،ط8،د م ، 2005 م ،ص 739 .

(3) – محمد علي معجم كشاف اصطلاحات العلوم والفنون ، د ط ، د ت ، ص 1197

(4) – سورة الأنبياء الآية (80) ..

(5) – سورة النمل الآية (88).

(6) - داغر شربل ،الفن الإسلامي ، ط1، دار الآثار الإسلامية ،الكويت ،1989م ،ص 38.

(7) – جمال الدين ابن منظور ، لسان العرب ،تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون ،ط1 ،دار المعارف ،القاهرة ،1990م ،ص 2508 .

(8) – محمد ابن مرتضى الزبيدي ،تاج العروس من جواهر القاموس ،تحقيق عبد المنعم ابراهيم ،وكريم محمود ،ط 1 ،دار الكتب العلمية ، لبنان 2007م ، مج 11،ص ص 199- 201 .

(9) – علي ابن محمد ابن مسعود الخزاعي ،تخريج الدلالات السمعية ،تحقيق إحسان عباس ،ط1 ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان ،1985م ، ص 793 ،794 .

(10) – محمد عمارة ،قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ، ط1 ، دار الشرق ، بيروت ، 1993م،ص 334 .

(11) – الجرجاني علي بن محمد ،كتاب التعريفات ،مكتبة لبنان ،بيروت ،1978م ،ص 140 .

(12) – داغر شربل ، المرجع السابق ،ص 5 .

(13) – إخوان الصفا ، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء ، دار صادر بيروت ،د ط، د ت ،ج1 ،ص 287-290 .

(14) – يوسف بن عمر بن علي بن رسولي ، المخترع في فنون من الصنع ، تحقيق محمد عيسى صالحية ،مؤسسة الشراع العربي ، الكويت ،1989م ،ص5 .

(15) - غطّاس عائشة ، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830)، منشورات ANEP، الرويبة-الجزائر، 2007، ص113.

(16) – داغر شربل ، المرجع السابق ، ص ص 35 – 37 .

(17) – إخوان الصفا ،الصدر السابق ،الرسائل ،مج 1 ، ص 277 ،278 .

(18) – عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ، ص 440 .

(19) – محمد ابن محمد ابن أحمد القرشي ،(ابن الأخوة) ،معالم القربة في أحكام الحسبة ،تحقيق ،محمد محمود ،وصديق أحمد عيسى الهيئة المصرية للكتاب ،القاهرة ،1976 م ،ص 11.

(20) - إخوان الصفا ، ، المصدر السابق ، مج 1 ،ص 289 ،290 .

(21) – عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ،ص 441 .

(22) – بن مرزوق ، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1981. ص 448 .

(23) – هدى محمدي ،معجم مصطلحات الحرف والفنون في كتاب تخريج الدلالات السمعية للخزاعي ،بلنسية للنشر والتوزيع ،مصر ،ط1 ،2008 م ،ص 64.

(24) – عبد الرحمان ابن خلدون ، المصدر السابق ،ص 440 .

(25) – ابن مرزوق ، المصدر السابق ،ص 130 .

(26) – اسماعيل سامعي ،معالم الحضارة العربية الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 281 .

(27) – عبد الرحمان ابن خلدون ، المصدر السابق ص 726 .

(28) - نفسه ،ص 726 .

(29)- عبد الرحمان ابن خلدون ، العبر، مج 7 ،ص 190.

(30) – بوزيان الدراجي ،نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر1993م ،ص 218 .

(31) – ضيف شوقي وآخرون ، المعجم الوسيط ،ط 4، مكبة الشرق الدولية للنشر ، مصر ، 2004م ، ص 336 .

(32) – اسماعيل ابن حماد الجوهري ، الصحاح ، المصدر السابق ،ص 1032 .

(33) – إخوان الصفا ، المصدر السابق ،ج1 ،ص 312 .

(34) – عاصم محمد رزق ،معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية ،مكتبة مدبولي ،2000م ،ص 121 .

(35) – عبد العزيز لعرج وآخرون ، مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية ،منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث ، الجزائر ،د ت ، ص372 .

(36) – أنور الرفاعي ،الإسلام في حضارته ونظمه ،دار الفكر للطباعة والنشر ، سورية ،1997 م ،ص 449 .

(37) - - Lawless (R.I) et Blake (J.H), Tlemcen: Continuity and Change in Algerian Islamic Town, Bowker : London, 1976, p.p.11-14.

(38) – ابن منظور ، لسان العرب ،ج4 ،ص 94 .

(39) – علي خلاصي ، العمارة العثمانية لمدينة الجزائر ، المتحف المركزي للجيش الوطني ، وزارة الدفاع الوطني ،الجزائر ،ج2 ،1985م ،ص 34 .

(40) – عبد القادر دحدوح ،مدينة قسنطينة حلال العهد العثماني دراسة أثرية ،رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية ،جامعة الجزائر02 ،مهد الآثار 2010م،ص 656 .

(41) – علي خلاصي ، المرجع السابق ،ص 34 .

(42) – عاصم محمد رزق ، المرجع السابق ، ص 12 .

(43) – عبد الكريم جودت المرجع السابق ،ص 118 .

(44) – صالح بن قربة ، تاريخ مدينتي المسيلة وقلعة بني حماد في العصر الإسلامي ،منشورات الحضارة ،دت ،ص 386 .

(45) – مختار حساني ،الرمع السابق ،ج2 ،ص 96.

(46). – الحاج محمد رمضان شاوش ،باقة السوسان في التعريف بتلمسان عاصمة بني زيان ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،2011م ،ج2 ،ص332 .

(47) – عبد العزيز فيلالي ،تلمسان في العهد الزياني ،موفم للنشر، الجزائر،2007 ،ج1 ،ص 121 .

(48) – نفسه ، ص 11 .

(49) – سامي نوار ،الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ،2003م ،ص 37 .

(50)- صالح بن قربة ، المرجع السابق ،ص 390.

(51) - مارسيه جورج، مدن الفن الشهيرة: تلمسان، ترجمة: سعيد دحماني، دار النّشر التّل، البليدة - الجزائر، 2004.ص 40.

(52)- خالد بلعربي ،الدولة الزيانية في عهد يغمراسن ،دراسة تاريخية حضارية ،ط1 ،دار الألمعية للنشر والتوزيع ،الجزائر،2011م ،ص 240

(53) - عبد الفتاح الغنيمي ،موسوعة تاريخ المغرب العربي ج2 ، مكتبة مدبولي ،القاهرة ،ط1994،1م ،ص326.

(54) GOLVIN Lucien, Recherches archéologiques à la Qala des Banў Hammăd , G.P. ă-Maisonneuve et Larose, Paris, 1965. p.189

(55) – يحي بوعزيز ،موضوعات وقضايا من تاريخ العرب والجزائر ،ج1 ،دار الهدى عين مليلة ،الجزائر2004 م ،ص 49

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

(56)- الهادي روجيه إدريس ،الدولة الصنهاجية ، ط1 ،نقله للعربية ،حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،لبنان ،1992 م ج1،ص 252 .

(57) – جورج مارسي ، مدن الفن ،ص 39 .

(58) GOLVIN Lucien, Recherches ...p 193-